عندما جثا المراهقان أحدهما بجانب الآخر في «البيت المقدّس»، المكان الذي تقام فيه الشعائر، لم يكن «ماني» يُرتِّل. بل كان يحرّك شفتيه وذقنه وحاجبيه ليُوهم بأنه يُرتِّل، بيد أنه لم يكن يخرج من فمه أيّ صوت. وإذ كانا معاً في سُخرة ذات يوم في بستان الجماعة فقد لاحظ «مالكوس» أن «ماني» لم يكن كذلك يعمل. بل كان يرفع مِعْزقته بتثاقُل ويخفضها ببطء، بطء شديد بحيث تكاد وهي تلامس التربة تخدشها. ثم كان يتظاهر من حين إلى حين بأنه من العياء وكأنه قد عَرَق حقّاً، فيتوقّف ويُسند أداته بأناة إلى جذع شجرة رمانٍ أملس لكي يستعيد أنفاسه.

ولم يتمالك «مالكوس» في ذلك اليوم عن سؤاله عمّا كان يفعل. وعندها التقط «ماني» غصناً مقطوعاً كان قد بدأ يذبل وإن لم يزل أخضر فلوّح به وفرقع وكأنه سوط.

ـ اسمع هذا الصفير! إنه الهواء يُعْوِل لأني أهنتُه. ولو كنتَ تُحْسِن الإصغاء إليه لسمعته يقول: تخفّف فوق هذا الثرى، سِرْ من غير أن تشدّد الوطء، تجنّب الحركات الفظّة، لا تقتل الأشجار ولا الأزهار. تظاهر بحرث الأرض ولكنْ لا تجرحْها بل اكتفِ بمداعبتها. وعندما يرفع الآخرون عقائرهم حرِّكْ شفتيك ولا ترفعْ عقيرتك.

لسوف يقول «ماني» فيما بعدُ وهو يتذكّر بأعوامه في بستان النخيل التابع لـ «أصحاب الملابس البيضاء»:

«لقد سِرتُ وسط هؤلاء الناس بحكمة وحيلة، محافظاً على الراحة، غيرَ مقترفٍ ظُلماً، غيرَ مُنْزِلٍ أي نوع من العذاب، غيرَ مُتَّبِع شريعتهم، غيرَ خائضٍ في أي حديث على طريقتهم».

فأما الحيلة فقد انبغى اللجوء إليها للعيش يوماً بيوم في كنف هذه الجماعة من غير التقيُّد قطّ بممارساتها، ولكن من غير التظاهر أيضاً بمناقضتها. وذلك لأنه كان على المراهق أن يُخفي حقيقته الخبيئة، وأن يتعلّم ويتأمّل وينضج خلال